الدفاعات الحربية الحمادية – منشآت وفنيات –
القلعة والناصرية(بجاية) أنموذجا

الدكتور/ موسى هيصام

جامعة " الدكتور يحيى فارس" بالمدية

الملخص:

شكلت الحصون والقلاع وغيرها من المنشآت الدفاعية الحربية أداة هامة في ضمان المحافظة على استمرار كيان الدولة وحماية سكانها، خاصة دولة مثل الدولة الحمادية التي ولدت من رحم الصراع داخل البيت القبلي الصنهاجي الواحد، فقد كلف حماد مؤسس الدولة ابتداء بحماية الحدود الغربية للدولة الزيرية وخاصة عاصمتها الأولى آشير وما جاورها من مدن وقرى، ضد قبيلة زناتة المتربصة بمضاربهم، مما نمى فيه طموحا شخصيا قاده إلى الانفراد بحكم المغرب الأوسط وفصله عن الدولة الأم ـــ الدولة الزيرية ـــ ليطبع دولته من خلالها بطابع عسكري بحت، وما إطلاق اسم القلعة على تلك المدينة التي أسسها وجعلها عاصمة لدولته آنذاك ـــ قلعة بني حماد ـــ إلا دليلا على ذلك، انخرط بعدها في أتون عدة صراعات وتحديات داخلية وخارجية أبرزها مواجهة الزناتيين غربا، والزيريين شرقا، وتعامل خلفاؤه من بعده بحكمة للنزوح الهلالي على أطراف مملكتهم، وانتهاء بالغزو النورماني، ثم التوسع الموحدي الذي أجهز على الدولة الحمادية وضم ممتلكتها للمحديين سنة 547هـ/ 1152م.

وانطلاقا من هذه الإشكالية المتمثلة في عسكرة الدولة، وأثره في الإنشاء العمراني للدولة في حالة الحرب أو السلم.

مثل الإطار الحربي الذي طبعت عليه أغلب الدول المستقلة بالمغرب الإسلامي منذ وقت مبكر، مجالا لبروز مظاهر عمرانية أنشئت على أساس منطلقات دفاعية وهجومية في آن واحد.

والدولة الحمادية واحدة من هذه الكيانات التي عكف مؤسسها " حماد بن بلكين" على بناء قاعدة عسكرية قوية للوقوف في وجه التحديات الناتجة عن تبعات خياره في الانفصال عن الدولة الزيرية بالمغرب الأدنى سياسيا، والخلافة الفاطمية بمصر مذهبيا.

لقد أهلت الرجل عناصر لزعامة بطون من صنهاجة بالمغرب الأوسط ، فقد اجتمعت في شخصه مواصفات الزعامة والقيادة للقيام بأدوار متميزة على مدار قرن ونصف من الزمن تقريبا، ساهمت فيه الدولة الحمادية، إن على مستوى"القلعة" عاصمتها الأولى، أوالناصرية (بجاية) العاصمة الثانية.

فالتحديات التي واجهت المغرب الأوسط خلال العهد الحمادي ، إن على مستوى الصراع بين الكيانات السياسية الكبرى والصغرى،وكذا الصراع بين العصبيات القبلية، أو بين بطون القبيلة الواحدة، جعل العسكرة هي الميزة الغالبة التي طبعت واقع الأحداث خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين(10- 12م).

فكان التركيز من جانبها كغيرها من الدول التي عاصرتها نحو استحداث المنشآت الحربية الدفاعية والهجومية، في شكل مدن، وقلاع، وحصون، وأسوار، باعتبارها وسائل جوهرية استخدمت لضمان المحافظة على سيادة الدولة، استمرار وجودها، وحماية ساكنيها، خاصة الدولة الحمادية كونها ولدت من رحم الصراع داخل البيت القبلي الصنهاجي الواحد، ليتطور إلى تمدد وتوسع على حساب قوى أخرى، بحكم الجوار أولا، أو الصراع المذهبي ثانيا.

وانطلاقا من إشكالية العسكرة التي طبعت الدولة في هياكلها وتوجهاته، وحتى في إنشاءاتها العمرانية، اتجهت لمناقشتها، وتفكيك عناصرها وفق مايلي:

- التعريف بالدولة وبطابعها العسكري – الأسباب والتداعيات –
- التحصين العسكري الحمادي ومظاهره – منشآت وفنيات –
- أثر المنشآت العسكرية في الحفاظ على الدولة وضمان استمراريتها.

الخاتمة.

1ـــ التعريف بالدولة وبطابعها العسكري – الأسباب والتداعيات –

الدولة الحمادية واحدة من الدول التي قامت في المغرب الأوسط، ضمن فضاء القسم الغربي من الدولة الإسلامية ابتداء من القرن الخامس الهجري، ووفق إطار جغرافي امتد من الناصرية (بجاية) شرقا، إلى وادي ملوية وراء تلمسان غربا[1]، لتعرف هذه الحدود اتساعا أشمل في العهد الحمادي ممتدة من مدينة بونة شرقا – كحد فاصل بين المغربين الأوسط والأدنى (إفريقية) – إلى مدينة تلمسان وما والاها كفاصل بين المغربين الأوسط والأقصى[2].

ورغم توسع هذين الإطارين من فترة لأخرى، حسب القدرة العسكرية لكل أمير في اكتساح لهذا الجزء أو ذاك، فقد ضم" الناصر بن علناس" (454-481هـ/1062- 1089م) مدنا من إفريقية مثل مدينتي تونس والقيروان، بطلب من سكانها الذين ترجوه النظر إليهم، وتعيين وال من قبله لإدارة شؤونهما[3].

---

1 لقبال موسى وبورويبة رشيد وآخرون، الجزائر في التاريخ – العهد الإسلامي– من الفتح إلى بداية العهد العثماني، ج3،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 1984، ص 13.

2 ابن أبي دينارعبد الله محمد القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية و تونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ط1387،3 هـ، ص95.

3 ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ليفي بروفنسال وكولان (ج،س) ج1، ط3، 1983، ص ص317،316.

واستمرت سيطرتهم على المنطقة، تحت حكم أسرة "بني خرسان"حتـــى سنة 543هـــ/1148م، تاريخ استيلاء"روجر الثاني"النورماني على تونس وماجاورها سواحل من إفريقية. وبالمقابل مدّ خليفته "المنصور بن الناصر" (481-498هـــ/1089-1105م) حدودها إلى مدينة فاس غربا.

وارتبط اسم هذه الدولة باسم مؤسسها "حماد بن بلكين" (405-419 هـــ / 1014-1028م) منذ انفصاله عن بني عمومته، أصحاب الدولة الأم(الزيرية) سنة 405هـــ / 1014م، بعد المكاسب التي حققها كرجل حرب عرف بشجاعته وإقدامه، فاستغلها ابن أخيه "باديس بن المنصور" سنة 387هـــ/997م، مكلفا إياه بمتابعة بطون قبائل "زناتة " والعمل على جمح كماحيهم، على الحدود الغربية لدولته، ومقابل ذلك كلفه بالإشراف على تسيير شؤون المغرب الأوسط، والتحديد المنطقة المحصورة بين جبل أوراس شرقا إلى تلمسان وملوية غربا[1]، بموافقة من "باديس"، وما زاد في تشجيعه على ذلك بناؤه للقلعة سنة 398هـــ /1007م، التي اشتهرت باسمه واسم بنيه " قلعة بني حماد"، فاستغل محاولة ابن أخيه لتقويض حدود ولايته، فكانت سببا مباشرا لإعلان المواجهة العسكرية بين الطرفين، وإيذانا بانقسام ملك الدولة الصنهاجية إلى فرعين: الأول بالمغرب الأدنى، والآخر بالمغرب الأوسط، وعليه مر تاريخها من التأسيس حتى السقوط إلى بالفترات الثلاث التالية:

1- الفترة الأولى:(405-443هـــ/1014-1051م)

انطلاقا من إنشاء "حماد" لقلعته سنة 398هـــ/1007م، مرورا بنجاح حركته الاستقلالية سياسيا ومذهبيا عن الدولة الزيرية، والخلافة الفاطمية

1 ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، مكتبة المدرسة، در الكتاب اللبناني للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ط 1979،ص519.

ومذهبها الشيعي، وإعلان ولائه للدولة العباسية، واعتناقه للمذهب السني ابتداء من سنة 405هـ/1014م[1]، مما نتج عنه صراع دموي بين أبناء الأسرة الصنهاجية الواحدة.

2- الفترة الثانية:(443-481 هـ/1051-1089م)

شهدت فيها الدولة الحمادية أوج عظمتها[2] اتساعا، حضارة وثقافة، نتيجة للدور المعتبر الذي قام به أميرها "الناصر بن علناس"، ومنها تحويله لعاصمة الدولة من القلعة إلى الناصرية (بجاية) سنة 460 هـ/ 1067-1068م[3] (4) في محاولة منه لعزل الهلاليين، وفتح آفاق جديدة لدولته و احتياطا من زوال ملكه على غرار ما حصل لبني عمومته الزيريين بإفريقية.

3- الفترة الثالثة : (481-547 هـ/109-1152 م)

وفيها تقلص نفوذهم تدريجيا، رغم نشاطهم البحري الكبير في صد النورمان المسيحيين بقيادة ملكهم "روجرII "، ووضع حد لتواطؤ حكام إفريقية معهم، من خلال حملات "العزيز بن المنصور" وخليفته "يحي" على المهدية وما والاها[4].

مثل الجهاز العسكري دورا فعالا فعال في إرساء ركائز الدولة، وتوسيع رقعتها ، والحفاظ على مكتسباتها وحدودها ، ومنحها هيبة خاصة بين دول

---

1 العدوي إبراهيم أحمد، بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط1970، ص173.

2 اسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك لقلعة و بجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، ط1980،ص138.

3 داود بن يوسف سليمان، حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، مطبعة أبو داود، الجزائر، ط 1983، ص 83.

4 ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 312 ، ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر،دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان ط 1983، ج6، ص 331.

بلاد المغرب كلها[1]، حيث نشأت الدولة الحمادية وترعرعت في ظل الصراع والمواجهة سواء مع القبائل المجاورة خاصة بطون زناتة غربا ، أو بني عمومتهم الزيريين شرقا، أو مع الروم المسيحيين على الواجهة البحرية المتوسطية شمالا ، مما جعل الحياة السياسية العامة تطبع بالطابع العسكري من خلال استعدادها الدائم للحرب، وتعدد حجم المواجهات مع غيرهم .

ولعل افتكاكهم لاستقلالهم بالقوة الحربية ، وصدّهم لهجمات الملثمين المتحالفين مع قبائل زناتة ، وتمكنهم من الوصول إلى مدينة فاس في قلب المغرب الأقصى، يؤكد جليا مكانة هذه الدولة في عمق التاريخ المغاربي العام[2]، أثبت بصورة جلية أهمية جيشها، وعمرانها الذي طبع بالطابع الحربي لتأدية وظائف دفاعية وهجومية محدده لاعتبارات عدة منها:

1 – الموقع الوسطي الذي تبوأته الدولة الحمادية كخط تماس ، ورقعة فصل بين نطاقين متباينين :

الخلافة الفاطمية والعباسية شرقا، والخلافة الأموية غربا، جعلها محط أنظار الأطراف المتصارعة في محاولة لاستمالتها، أو الدخول في مواجهتها، وهو ما قاد إلى صراع مرير مع جيرانها، من خلال محاولة الزيريين عمال الفاطميين في استرجاع ما فقادوه في المغرب الأوسط، أو محاولة قبيلة زناتة عمال الأمويين على الجهة الغربية في صراعها مع قبيلة صنهاجة، وسعي كل طرف لفرض سيادته على الأخر.

---

1 الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 6، ط1983، ص276.

2 ابن الخطيب لسان الدين، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط – القسم (3) من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق وتعليق العبادي أحمد مختار، والكتاني محمد إبراهيم، دار الكتاب، الدار البيضاء،المغرب، ط 1964، ص86، لقبال، وبورويبة وآخرون، المرجع السابق، ص205، بن عمير محمد، دور زناتة في الحركة المذهبية في المغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1984،ص280 .

2- انفتاحها على الواجهة البحرية المتوسطية ، ودوره في صدّ الحملات الصليبية التي بدأت في الأندلس وصقلية ثم امتدت إلى المشرق فيما بعد ، خاصة عقب استيلاء النورمان على صقلية ، بافتكاكها من يد الزيريين ، ليبادلوا بعمليات هجومية مكثفة مع مطلع القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي[1].

فكان الحماديون في مستوى التحدي من خلال بنائهم لترسانة بحرية كبيرة أهلتها لمباشرة الغزو، والمبادرة بالهجوم انطلاقا من موانئها المنتشرة عبر الساحل، ممتدة من ميناء مدينة بونة شرقا، مرورا بميناء جيجل وبجاية، وجزائر بني مزغنة، وصولا إلى تنس غربا، فكانت مبادراتها العسكرية البحرية المتعددة التي فوتت الفرصة على المسيحيين في الوصول إلى إفريقية وبلاد المغرب، رغم غاراتهم الناجحة على بونة ، وجيجل وشرشال وتنس والمهدية (بإفريقية) بين 537-543هـ/1142-1148م [2]. إلى أن سلم مشعل الجهاد البحري الذي حملوه، للموحدين بعد استيلائهم على ملك الحماديين عشية امتلاكهم لبجاية ثم القلعة في سنة 547هـ/1152م، وعقب تنسيق عسكري بينهما في صدّ العدو النورماني المشترك قبل هذا التاريخ.

وانعكس هذا التفوق العسكري على الجانب الحضاري، إذ ولد استقرارا سياسيا ساهم بصورة مباشرة في حيوية النشاط الاقتصادي للدولة بفعل التحصينات العسكرية المتنوعة في شكل مدن، أو حصون، أو قلاع ، أو أبراج مراقبة، مكنها من تأمين طرق التجارة بين الأمصار فيما بينها داخليا، أو بين

---

1 المطوي محمد لعروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،ط1982،2، ص ص 223،224.

2 ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص313، المطوي، نفسه، ص224، بوتشيش إبراهيم القادري، تاريخ الغرب الإسلامي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1994، ص 72.

مدنها ومدن خارجة عن سلطتها من جهة أخرى، خاصة عبر طريق التجارة التقليدي، الرابط بين القلعة وبلاد السودان غربا عبر مدينة سجلماسة[1]، أو عبر المنافذ البحرية التي أشرفت عليها من خلال موانئها في كل من بونة وبجاية وتنس وغيرها[2]، التي ساهمت في الزيادة في مداخيل الدولة ماليا ، مما ساهم في تعبئة تلك الموارد لدعم الجيش عددا وعدة، من خلال حجم التجنيد والتسليح، وتطوير الصناعة الحربية البرية والبحرية، مما أكسبها مكانة محفوظة الجانب بين دول المنطقة كلها على خلاف توجهاتها السياسية والدينية والمذهبية[3].

هذه المعطيات كلها جعلتنا نفصل بين مرحلتين تاريخيتين متمايزتين من عمر الدولة الحمادية في جانبها العسكري :

أما الأولى: فامتدت من التأسيس إلى نقل مقر العاصمة من القلعة إلى بجاية وأهم مواصفاتها :

الاتجاه نحو وضع الأسس الأولى للدولة وفي مقدمتها إنشاء قوتها العسكرية ممثلة في الجيش النظامي المتكون عادة من الأفراد الذين يتلقون ممارسة وتدريبا حربيا دائما، مما يجعلهم على استعداد دائم للذود عن حياض الدولة، والأخطار التي تهددها، وهو ما حاول حكام القلعة القيام به على أكمل وجه، اعتمدت على

---

1 الجنحاني الحبيب، المغرب الإسلامي،الحياة الاقتصادية والاجتماعية(3-4 هـ / 9-10م)، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1978،ص 176.

2 الإدريسي أبو عبد الله محمد، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس- مأخوذ من " كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق"- مطبعة بريل، ليدن، ط 1968، ص 63.

3 Mas-latrie (M.L),Traites de Paix et de Commerce et Documents Divers Concernant les Relations des Chrétiens avec les Arabes, puplished in paris, 1866, P 32.

سامي سلطان سعد، دراسة عن رسالة البابا غريغوري السابع إلى العاهل الحمادي الناصري بن علناس"، مقال "بمجلة الدراسات التاريخية"، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1986، ع1، ص ص 42،43.

دعامة رئيسية تمثلت في العنصر الذي استندت إليه الدولة في قيامها وهي قبيلة صنهاجة، مع تطعيمه بعناصر أخرى، باللجوء إلى القبائل الحليفة مثل بعض بطون زناتة، أو بعض القبائل العربية الهلالية التي نزحت إلى إفريقية ثم المغرب الأوسط.

وقد أمكن لهذا الجيش تحقيق انتصارات عدة، بتعدد المواجهات التي خاضها ضد خصوم الدولة ، وتمكن من تثبيت ركائزها، ووسع إطارها، وحافظ على حدودها رغم التحديات التي واجهتها، في مقدمتها عدم القدرة على وضع حد للتغلغل الهلالي في الأمصار الشرقية للمملكة وصولا إلى القلعة وما يحيط بها، وهـــو ما جعلها تنتقل إلى المرحلة الثانية من أدوار حياتها.

المرحلة الثانية: ويؤرخ لبدايتها بإنجاز "الناصر بن علناس" لمدينة بجاية ذات الموقع الهام المفتوح على البحر، ثم تمصيرها واتخاذها عاصمة جديدة بديلة عن القلعة منذ 460 هـــ/1067-1068م. وفي هذه المرحلة أصبحت الدولة أكثر نضجا، بانتقالها من مرحلة التأسيس إلى البناء الحضاري الحقيقي، تجلى ذلك في الانجازات المحققة حتى جعلتها عين بلاد بني حماد خصوصا، والمغرب الأوسط عموما، وانتقل فيها الجيش إلى قوة أكثر فعالية وخبرة وتنظيما، خاصة جمعه بين تنظيمين: قوات برية وأخرى بحرية، بامتلاك الدولة لأسطول حربي ساعدها على صناعته، انفتاحها على الواجهة المتوسطية، ووفرة الإمكانات المادية خاصة البحرية منها، إضافة إلى حجم التحديات الجديدة التي فرضت عليها في إطار الصراع الحضاري بين الشرق والغرب، الذي أصبحت تمثل أحد أطرافه الرئيسية في الحوض الغربي للمتوسط، وهو ما فرض على الجيش مهمة أثقل، وأهمية أكبر، في إكساب الدولة مكانة وهيبة، على اعتبار أن السلم لا يتحقق إلا إذا دعمته قوة تدفع الطرف الأخر إلى الأخذ به، وهو ما حاول الحماديون تحقيقه مع كل الأطراف التي ناصبتهم العداء.

فقد أعتبر الواقع السياسي والعسكري الذي أسس فيه الحماديون دولتهم، وتطور الأحداث لدى جيرانهم، دافعا لتركيز أكبر اهتماماتهم على إقامة تحصينات عسكرية متنوعة، تؤهلهم لإرساء قواعد كيانهم، بناء على المنطلقات والأبعاد التالية :

1- الصراع التقليدي بين قبيلة صنهاجة عماد الدولتين الزيرية والحمادية[1].

وأعدائهم الزناتيين، يعدّ من الأسباب التي مكنت "حماد بن بلكين" من اقتطاع المغرب الوسط، وتشكيل الدولة التي نسبت إليه باستقلاله عن الزيريين سنة 405هـ/1014م [2].

فقد كلف من قبل أخيه " المنصور"، ثم ابن أخيه " باديس بن المنصور" للقيام بدور عسكري أساسي تمثل في وضع حاجز بينهم وبين قبيلة زناتة، بالحيلولة دون وصولها إلى تهديد ممتلكاته في كل من إفريقية و المغرب الأوسط مقابل منحه آشير والمسيلة ليديرهما بنفسه[3]، فكانت هذه المهمة الملقاة على عاتقه وسيلة أساسية وظفها "حماد" لاكتساب خبرة أوسع في المجال العسكري، وظرفا مناسبا لتشكيل قوة موالية له ، دعمها بانتصاراته متتالية على زناتة

---

1 النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 24، تحقيق محمد جابر عبد العالي الحيني ومراجعة إبراهيم مصطفى المكتبة العربية ، يصدرها المجلس الأعلى بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب(مركز التحقيق التراث)، القاهرة، مصر، ط1984، ص161؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص 312، الباجي أبو عبد الله الشيخ، الخلاصة النقية في أمراء افريقية، طبع مطبعة بيكار وشركائه، تونس، ط2، 1905، ص 46.

2 النويري، نفســه، ص 192، بن عميرة – المرجع السابق – ص ص15،28 ، سالم السيد عبد العزيز، المغرب الكبير– العصر الإسلامي– دراسة تاريخية وأثرية وعمرانية – ج 2، دار النهضة العربية ، بيروت، ط 1981، ص649.

3 النويري، نفسه، ص 161، ص 185؛ ابن خلدون، العبر، ج1، ص 398، الباجي، نفسه، ص 46.

وتكسير طموحها في تشكيل دولة على حساب الجزء الغربي من المغرب الأوسط على المدى القريب والمتوسط [1].

هذه المكاسب التي حققها كانت منطلقا لتجسيد حلمه في الملك وتأسيس دولة خاصة به وبأسرته على عهد "باديس " عرفت بـــ " الدولة الحمادية كفرع منقسم عن الأسرة الصنهاجية[2].

وتعود أسباب الصراع بين القبيلتين العريقتين إلى طبيعة ولاء كلتيهما لطرفين متباينين سياسيا ومذهبيا، فإذا كان ولاء قبيلة صنهاجة أساس الدولة الحمادية الأول للفاطميين قبل الانفصال، ثم للعباسيين في العهد الحمادي، فإن قبيلة زناتة على العكس من ذلك تماما، فقد كان ولاؤها للأمويين بالأندلس سياسيا، ولأهل السنة مذهبيا[3]، إذ استعملوا منذ عهد المستنصر بالله الأموي سياسيا وعسكريا لتحقيق هدفين أساسيين :

– الأول:الاحتفاظ بالمواقع العسكرية ذات الأهمية، والتي كانت تحت سيطرة الأمويين على ساحل المغرب ومنها مدينتا "سبتة " و "طنجة".

– الثاني:إضعاف الفاطميين وحلفائهم في المغرب عبر تحقيق التوازن بين القبيلتين المتنافستين زناتة من جهة وصنهاجة من جهة أخرى[4]، بالمقابل اتخذ

---

1 ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص95؛ المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق وتقديم وتعليق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، مصر الجيدة، القاهرة، مصر، ط1994، ص 174.

2 ابن خلدون، العبر، ج6، 351؛ العدوي، المرجع السابق، ص 272.

3 حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، القسم 3، جمع وإشراف محمد لعروسي المطوي، كتبة المنار، تونس، ط2، 1972، ص ص56،57؛ بن عميرة – المرجع السابق –ص 236 ، العدوي، نفسه، ص273.

4 بن عميرة ، نفسه، ص ص184، 185؛ ديري أكرم وآخرون، الموسوعة العسكرية ،ج3، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1981، ص528.

الفاطميون نفس الغرض بجعل المغرب الأوسط وإفريقية حدا فاصلا بين مقرهم الجديد بمصر والأمويين بالأندلس، وهو ما قاد إلى صراع طويل الأمد بين القبيلتين، في شكل حملات عسكرية شنها الحماديون وقبلهم الزيريون صوب الناحية الغربية، مكنتهم من امتلاك مدينة فاس، ومن ثم مراقبة المغرب في جزء منه في حدود سنة 368 هـ/978 م[1].

وبذلك وضع حد لهجمات زناتة المتكررة على بلاد المغرب الأوسط وإفريقية، فقامت صنهاجة بذلك الدور على أكمل وجه ، بحكم قدراتها القتالية، والاستناد إلى تحصيناتها العسكرية[2]، التي أقامتها بالمنطقة فمكنتها من كسب الزعامة السياسية والعسكرية بها وضمان التوسع الجغرافي الدائم على حسابها.

أما المنطلق الثاني للاتجاه نحو المنحى التحصيني للمدن والمواقع الحمادية، فهو الصراع السياسي، والمواجهات الحربية بينهم وبين بني عمومتهم الزيريين، منذ القطيعة والانفصال اللذين حدثا بين أبناء العائلة الصنهاجية الواحدة، أي باستقلال "حماد بن بلكين " بالمغرب الأوسط سنة 405هـ/1014م، وتأسيسه لقاعدته العسكرية المحصنة وعاصمة دولته "قلعة بني حماد"[3]، لاتخاذها منطلقا هجوميا ودفاعيا في وجه خصومه، عند قيامهم بأية

Cornevin Robert ,Histoire de l'Afrique,des Origins au XVI Siecle,t 1, 1 paris, 1967, p 270.

2 ابن الأثير أبو الحسن عبد الواحد الشيباني الجزري، الكامل في التاريخ، ج9، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 2، 1967، ص47.

3 النويري، المصدر السابق،ج24، ص ص194،192؛ ابن عذاري،المصدر السابق،ج1،ص ص261، 264.
Golvin Lucien- Le Magrib Central à l'Epoque des Zirides, Recherches d'Archéologie et d'Histoire Arts et Métiers Graphique, paris,1957, p105 ; Cornevin , Op . Cit , T I , p 270.

محاولة لاسترجاع ما فقدوه[1]، خاصة في عهد أميرهم " باديس بن المنصور" [2]، وهو ما حدث فعلا، بإغارته على المواقع الحمادية ، ومنها محاصرته للقلعة سنة 406هـ/1014م، وعجزه على فتحها، كما استعصت من بعد على ابنه" المعزّ" في محاولة ثانية، وتكررت المحاولات والمواجهات بين الطرفين طوال حياة الدولتين، وتغير مسار ذلك بالنسبة للحماديين من حالة الدفاع إلى الهجوم في عهد "الناصر بن علناس" (454 –481هـ/1062-1088م)، أو خليفة "المنصور" (481-498هـ)/1088-1104م)، وصولا إلى آخر ملوكهم يحي بن العزيز (515-547هـ) الذي جـــــــدد الحملات البرية والبحرية ضدهم [3].

أما الاعتبار الثالث فيعود إلى الموقع الوسطي الذي تميزت به الدولة الحمادية والذي كان حافزا قويا لتوظيفه تجاريا سواء في عهد القلعة أو بجاية ، فدفعهم إلى ضرورة الاهتمام بتحصين المدن ونقاط المراقبة تأمينا للطرق التجارية، وحماية لمداخيل الدولة.

---

1 بدر أحمد، تاريخ المغرب والأندلس، المطبعة الجديدة، دمشق ،سوريا، ط 1980، ص162.

2 تولى إمارة إفريقية والمغرب ما بين(387 –406هـ/998-1015م)، خلفا لأبيه المنصور ، وهو لم يتجاوز من العمر سوى اثنا عشرة سنة، لقب بـــ "نصير الدولة "، عقد لعمه حماد بولاية آشير، وكلفه بمواجهة قبائل زناتة، ومنحه حكم ما يفتحه، غير أن تعاظم مكانته وانتصاراته المتتالية، دفعت باديس أن يطلب منه التنازل عن بعض أعمال قسنطينة لأبنه، فرفض ذلك، فكانت المواجهة الحربية بينهما، والتي انتهت بوفاة باديس على أسوار القلعة، واستقلال حماد بدولته. للمزيد عنه أنظر: ابن خلدون، العبر، ج 6، ص ص، 322،325؛ ابن خلكان شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج1، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط 1971، ص ص105، 106؛ القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج5، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط 1913، ص124.

3Boruouiba Rachid, l'Art Religieux Musulman en Algérie, S.N.E.D, Alger,1973, p 22.

فالقلعة مثلث منطقة اتصال حيوية بين الشرق والغرب خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري فيما عرف بطريق السودان ، فتنـــــوعت بذلك أنشطتها الاقتصادية عموما، والتجارية خصوصا[1]. وغدت قبلة القوافل، واتسعت خيراتها، وكثر مالها، أما بجاية بمنفذها البحري فلعبت هي الأخرى دور الوسيط بين المغرب وأوربا، وسائر مناطق العالم، إذ ذكر الإدريسي أن استحوذت على أقاليم وأعمال ومزارع، مما اوجد وفرة في مادة الحنطة وسائر الحبوب، والتي كانت تصدر إلى كل الآفاق بواسطة مختلف أنواع المراكب[2].

وهو ما يعطي صورة ناصعة عن حيوية الحركة التجارية والنشاط الفعال للمدن الحمادية، ومن ثم حتمية حمايتها من غارات المعتدين نظرا لتعدد خصومهم، وطبيعة الموقع الذي يحتلونه.

وساهمت المتغيرات السياسية والعسكرية التي عرفتها بلاد المغرب كمنطلق رابع أي توتر العلاقات بين الفاطميين وحلفائهم الزيريين حول إفريقية والمغرب، منذ القطيعة السياسية والمذهبية التي حدثت بين الطرفين عى عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله سنـــة 440هـــ/1048م [3]، واستعمال القبائل العربية[4] انطلاقا من صعيد مصر صوب إفريقية في محاولة دفعها للقضاء على

1الإدريسي، المصدر السابق، ص86.

2الإدريسي، المصدر السابق، ص83؛ العبدري محمد البلنسي، الرحلة المغربية ، تحقيق أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، قسنطينة، بدون تاريخ، ص23.

3 تباينت المصادر في تحديد تاريخ القطيعة بين: 433هـــ (ابن عذاري، البيان، ج1، ص ص275،276، أو سنة435هـــ، (ابن أبي دينار، المؤنس، ص83)، أو 440 هـــ (ابن خلدون، العبر، ج6، ص325)، أو 442 هـــ (ابن الأثير، الكامل، ج8، ص55)، أنظر أيضا: لقبال، دور كتامة، ص ص603،604.

4ابن خلدون، نفسه، ص ص27،28؛ يونس عبد الحميد، الهلالية في التاريخ والأدب والشعر، دار المعرفة،القاهرة، ط 2، 1968، ص ص 70،73.

ملك الزيريين، ومنها الانتقال إلى المغرب الأوسط، مما دفع الحماديين إلى بناء تحصينات جديدة يؤمّنون بها حدود دولتهم[1]، فكان إنشاء مدينة بجاية المنفذ البحري لقلعة بني حماد، والتي أحيطت بحصون وأبراج لتحقيق أغراض دفاعية، تتمثل أساسا في مراقب، تحركات الهلاليين بالمنطقة، والتي أشار فيه الإدريسي إلى بعضها فمنها: حصن دار ملول الذي احتوى على مرصد يتطلع به حركة هؤلاء الأعراب[2]، وهو ما يفسر لجوء الحماديين إلى الساحل والمناطق الجبلية، فاستعصت بذلك مواقعهم ومدنهم على العرب الهلاليين ،في حين فشل بنو عمومتهم الزيريين في ذلك، وهو ما زاد في تمرس الدولة حربيا، مستغلين هذه الظروف للتوسع على حساب ممتلكات الزيريين.

نتيجة لذلك أقام الحماديون عددا هاما من التحصينات، حاولوا من خلالها تحقيق بعدين عسكريين: دفاعي، وهجومي في آن واحد، يتبن ذلك من اختيارهم المسبق لمواقع وأماكن بنائها.

فالحصانة الطبيعية التي تمتعت بها المناطق المرتفعة من جبال وهضاب اتخذت أساسا لإقامة منشآتهم الحربية[3]، إذ مكنتهم من مراقبة السهول والوديان المجاورة لمدنهم ، وفي نفس الوقت رصد تحركات أعدائهم وتنظيم حركة تجارتهم، يبين الحموي ذلك في وصفه لقاعدة آشير إحدى المدن المحصّنة والهامة التي استندت إليها الدولة منذ فصلها عن الزيريين بقوله : " وهو موضع يتميز بسعة فضائه، وحسن منظره "، " وأقيم على جبلها حصن منيع ليس على المحصن به من طريق

---

1 الفرد بل، الفرق الإسلامية، ص 213.

2 الإدريسي، نفسه، ص93.

3 بورويبة ، مدن مندثرة – تاهرت سدراته ، آشير ، قلعة بني حماد – وزارة الإعلام والثقافة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1981، ص71.

إلا من جهة واحدة "[1]. وعلى نفس الأساس كان إنشاء العاصمة الحمادية الأولى القلعة على جبل كيانة[2] المحاط من الشرق بوادي فرج، وبجاية العاصمة الثانية على جبل أميسون المتميز بدوره بصعوبة الارتقاء، والمحاط هو الآخر بالبحر شمالا، وبوادي الصومام جنوبا، ليكون حاجزا طبيعيا، يحصر المدينة ويحصنها[3].

التحصين العسكري: المصطلح وأهميته

يعتبر التحصين أسلوبا عسكريا، دفاعيا وهجوميا، اعتمدته الشعوب قديما وحديثا، ممثلة في مجمل المنشآت والموانع التي تنجز في مناطق يتم اختيارها على أسس فنية حربية، تسمح بتقوية موقع دفاعي ما، أو حمايته من هجمات العدو ورصد تحركاته. فحسب ذلك تأخذ التحصينات نوعين متباينين:

– نوع تحصيني دائم (ثابت) : تبنى هياكله في أوقات السلم عادة بالحجارة أو غيرها من مواد البناء، في شكل مدن، أو قلاع أو أسوار، أو خنادق مع تدعيمها بوسائل دفاعية أخرى، كاستخدام جذوع الأشجار أو المجانيق، أو السهام لضرب العدو. لتتطور إلى استخدام السلالم أو الأبراج المتحركة لكسر القدرة الدفاعية واقتحام التحصينات الدفاعية المختلفة[4].

---

1 الحموي شهاب الدين ياقوت، كتاب معجم البلدان، أسدي، طهران، 1965 م، ص286.

2يسمى أيضا جبل كتامة، أو عجيسة أو تاقربوست، يقع شمال شرق المسيلة، أنظر: ابن خلدون، العبر، ج6، ص 350.

3 الطاهر الطويل، المدينة الإسلامية وتطورها في المغرب الأوسط من النصف الثاني للقرن الأول إلى القرن الهجري الخامس، الناشر : المتصدر للترقية الثقافية والإعلامية، الجزائر، ط2011، ص ص 298، 299.

4 ابن العنابي محمد بن محمود، السعي المحمود في نظام الجنود، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1983، ص130؛ هندي إحسان، الحياة العسكرية عند العرب، مطبعة الجمهورية، دمشق، سوريا، ط1964، ص ص148،143.

- ونوع تحصيني ميداني(غير ثابت):تستخدم في حالة الحرب والمواجهة المبـــاشرة مع العدو[1]، لتحقيق غرض رئيسي هدفه إحداث التفوق على القوات المهاجمة أو وضع عراقيل أمامها للحد من حركتها، أو حماية الجنود في موقع المعركة وعادة ما تستخدم الخندقة وسيلة لإحاطة القوات المعسكرة للحماية من الهجمات المفاجئة أو عمليات التسلل الليلية لاختراق الخطوط الدفاعية أو رصد نقاط الضعف لدى العدو.

ولتثبيت المنشآت التحصينية العسكرية، تطلّب الرصد الميداني لطبيعة الأرض التي تنجز عليها الحصون والقلاع وغيرهما، والتي من مواصفاتها الميزة الدفاعية البحتة. وتوقع نوعية الأسلحة المستخدمة والقدرة على تقييم الموقع بالنسبة للقوة المهاجمة أو المدافعة، وكذا تقييم أدائها الإيجابي أو السلبي عقب أي مواجهة تفاديا لمبررات الهزيمة، وتغليبا لكفة الانتصار.

2- التحـــصيـــن العسكري الحمادي ومظاهره - منشآت وفنيات -

تعددت مظاهر التحصين العسكري الحمادي حسب ما تفرضه الظروف الطبيعية لكل منطقة، وطبيعة الخطط المعتمدة، فكانت كالتالي:

أ- الأسوار[2]: من الوسائل الدفاعية التي غلبت على العمران العسكري الحمادي إحاطة مدنهم بأسوار منيعة أنشئت من الحجر والآجر ليأخذ

---

1 ديري أكرم وآخرون، ، ص ص256،257.

2 شكل تحصيني يحيط بالمدن والقلاع ، أخذت شكلا بدائيا في أول أمرها، لتتطور بشكل فعال خلال العهد العباسي في المشرق والمغرب، وكانت بغداد أول مدينة تحاط بالأسوار، مزودة بأبراج مراقبة، أنظر: القزويني زكريا بن محمد، أثار البلاد و أخبار العباد، دار صادر للطباعة و النشر، بيروت، ط1960، ص ص7،8، صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت، ط1965، ص504.

البعض شكلا مزدوجا أي سورين متوازين، للزيادة في الاحتياط أو كضرورة فرضتها المناطق المنبسطة ، للوقوف في وجه الغارات المحتملة[1].

فمن الناحية العملية كان لها الأثر الفاعل في صدّ الحملات الزيرية، ومنها حملة "باديس بن المنصور" الذي حاصر القلعة لمدة ستة أشهر دون أن يتمكن من دخولها، ووافته المنية بجوار أسوارها سنة 406 هـ/1014م.

كما صدّت الهلاليين الذين اكتفوا بالاستقرار في أحوزاها دون النيل منها،وبقيت صامـــدة حتى أنشـــأ " الناصر بن علناس " مدينة بجاية التي اتخذها عاصمة جديدة بديلا عنها.

فقد تم اختيار موقع القلعة على أساس الحصانة الطبيعية من المكان الذي أنجزت عليه والمستند إلى جبل تاقربوست، وحرصا على تقوية مناعتها أحيطت بسور من الحجارة يقدر ارتفاعه بين أربعة وستة أمتار، يمتد على استدارة الجبل بطول خمسة أ ميال تقريبا[2] "وهي متعلقة بجبل عظيم مطل عليها، وقد احتوى سورها المبني على جميع الجبل طولا وعرضا"[3]، "وهي.. في سند جبل سامي العلو، صعب الارتقاء، وقد استدار سورها، بجميع الجبل ويسمى تاقربوست، ومنه ملكت القلعة"[4]، وهو ما يحدد دقة الاختيار المسبق، فالموقع والسور المدعم له، ذو القيمة المتميزة أهل المدينة للحفاظ على ملك الدولة، وزاد في شهرتها ومكانتها العسكرية.

---

1 لقبال، بورويبة وآخرون، الجزائر في التاريخ، ج3، ص 237.

2 بورويبة، مدن مندثرة، ص،ص85،84.

3 تراوح عرض السورين بين 1.70م، و 2 م، وعلوه بين 4 ، و6 أمتار، واستدارته بحوالي7 كلم. أنظر: إسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك القلع وبجاية، ش.و.ن.ت، الجزائر بدون تاريخ، ص123؛ لقبال وبورويبة وآخرون، المرجع السابق، ص 270.

4 الإدريسي،المصدر السابق، ص86.

لتأخذ عاصمتهم الثانية بجاية نفس الطراز التحصيني، فقد بنيت هي الأخرى على سفح جبل يحفظها، وضرب حولها سور مماثل امتد من شاطئ البحر ليصعد متدرجا حسب ارتفاع الأرض أو انخفاضها بدورة تعادل عشرة أميال[1]، وامتد في خط يساير تعرج الشاطئ يحيط بالمدينة من الوجهة البحرية ليتعمد المهندسون اتخاذ الأرض الوعرة تحصينا طبيعيا يغني عن السور وهو ما يلاحظ في تقطعه من منطقة لأخرى[2]، ويرجع هذا الاختيار إلى ظروف تاريخية وسياسية تتمثل في:

- طبيعة قبيلة صنهاجة الحربية التي ألفت بناء مدنها وقراها على الجبال، ونتيجة لتدهور مركز القلعة كعاصمة بعد الحملة الهلالية عليها ، وهو ما أهلها للعب أدوار هامة في الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية للدولة ابتداء من القرن الخامس الهجري، خاصة على عهد أعظم ملوك بني حماد " الناصر بن علناس".

نفس الأسلوب التحصيني اعتمد في كل المدن التي بناها الحماديون ، فعلى غرار آشير التي أنشأها الزيريون، واستقل بها "حماد بن بلكين" منذ انفصاله بدولته، وكذا المحمدية (المسيلة) التي أحيطت بسورين متوازيين نظرا لوقوعها في بساط من الأرض مما سهل حمايتها، فكانت سند قلعة بني حماد في تموينها بالحاجيات غير المتوفرة بها[3]، وعليه نستنتج بأن مضاعفة التحصين بهذا الشكل

---

1 الحميري، المصدر السابق، ص 80.

2 إسماعيل العربي، دولة بني حماد، ص ص189، 190؛ إسماعيل العربي، " بجاية العاصمة الثانية لبني حماد " مقال بمجلة " الثقافة"، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، ديسمبر /جانفي 1972 /1973، ع18، ص29.

3 البكري أبو عبد الله المرسي، المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ، وهو جزء من كتاب: " المسالك والممالك"، تحقيق البارون، ص59 ، ابن حوقل أبو القاسم حمد النصيبي، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت بدون تاريخ، ص163.

يعود إلى طابعها المنبسط، أو باعتبارها البوابة الجنوبية الغربية للعاصمة القلعة، ومن ثم سبقها في مواجهة أي خطر محتمل يأتي من عدوها اللّدود زناتة.

هذه الخصائص العمرانية الحربية شكلت الأطراف المختلفة لحدود الدولة، وجعلتها تقف في وجه أغلب الحملات والغزوات التي شهدتها، مما ساهم في حركية النشاطات المختلفة خاصة في المرحلة الثانية من عمرها، أي منذ اتخاذ بجاية عاصمة بديلة سنة460هـ/1067 م.

ب- الحصون والأبراج[1]:

ثبت الحماديون أبراجا وقلاعا للمراقبة، في شكل بنايات عسكرية تنشأ على أطراف الأسوار أو بداخلها، وتكون غالبا على المناطق المرتفعة، فتعد بذلك تكملة لدور الأسوار، وأسلوب ترصّد لكل حركة مشبوهة تحيط بها،أخذت هذه الأبراج والحصون أشكالا هندسية متعددة، إذ أخذت قلعة أبي طويل[2]، الشكل المربع الذي يسمح برؤية أوسع وأشمل، وقد حددّ ابن الأثير مواصفاتها فقال بأنها من أحصن القلاع وأعلاها، ترى على جبل شاهق، لا يكاد الطرف يحققها نظرا لعلوها[3]، فقد كان إنشاؤها ابتداء على أساس حصن على سفح الجبل، يدعم ويعزز دور قاعدة آشير العسكرية للوقوف في وجه بطن مغراوة الزناتية، منذ تفطن "حماد" لنقاط ضعف المواقع الحربية التي ورثها عن الزيريين، مستندا إلى الأهمية المتميزة التي يحضى بها المكان الجديد، فهو

---

1 الحصن: قلعة أو برج مراقبة، تقام عادة بمعزل عن المدن بالمناطق المرتفعة الشاهقة ، تتميز بالأهمية الإستراتيجية، والبرج بدوره حصن عسكري يأخذ أشكالا مختلفة،ينشأ عادة داخل سور المدينة،يتميزان بضخامة الهيكل وصلابة المادة المستعملة في بنائهما،أنظر: بنعبدالله عبد العزيز، الجيش المغربي عبر التاريخ، منشورات قسم الدراسات الدبلوماسية، الرباط، ط 1986، ص 62، ص72.

2 القلعة التي اشتهرت بـــ "قلعة بني حماد"، القاعدة الأولى لحماد بن بلكين، اختطها بنفسه للتحصن، واتخذها باستقلاله عاصمة لدولته. أنظر : المراكشي،المعجب، ص174.

3 ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص31، الإدريسي، المصدر السابق، ص86.

حصـــن قديم[1]، المتجدد نواة للقلعة، وعاصمة الحماديين بتأسيس الدولة. ومن أبراجها الهامة برج المنار الذي بلغ طول الضلع الواحد منه حوالي عشرين مترا.

والأسلوب الدفاعي نفسه اعتمد ببجاية، إذ زودت أطراف سورها بأبراج متعددة لتنظيم الحراسة حولها للتطلع على الآفاق البحرية والبرية ، خاصة على قمة جبل قوراية، والذي بلغ ارتفاع البعض منها ستة أمتار[2]، منها حصن البحر، وبرج قوراية، وبرج المنارة أو شوف الرياض المنفتح على الواجهة البحرية وعلى ثلاثة أبواب من المدينة، وكذا برج بوليلة، وعليه حدّدت المسافة على العموم بين كل برج وآخر عبر دائرة السور بخمس وعشرين مترا، تتخللها ممرات الحراس في أعلى كل برج، اعتمد في إنجازها مادتا الحجر والآجر[3].

وللقيام بدور المراقبة بكل فطنة وحيطة زوّدت الأبراج بوسائل تستعمل في الاتصال على مستوى المدينة ذاتها أو بين مدن الدولة بكاملها.

وأمام التحدي الجديد الذي لازم الدولة منذ الحملة الهلالية على إفريقية وأحواز القلعة ، أنشأ الحماديون حصونا متقدمة للربط بين المراكز الهامة

---

1 المنطقة نفسها استمالة أنظار الرومان فأقاموا بها تحصينات بقيت مستعملة حتى العهد الفاطمي ، واستهوت أبا يزيد مخلد المعروف بالخارجي على الاعتصام بها أثناء ثورته على الفاطميين ما بين (322 – 332 هـــ) أنظر: إسماعيل العربي، دولة بني حمـــاد، ص120، بن عميرة، المرجع السابق، ص 212 ، سالم السـيّد، المغرب الكبير،ج2، ص630، بورويبة، مدن مندثرة، ص ص84،83، علاوة عمارة، " قلعة بني حماد- نشأة وأفول حاضرة إسلامية-"، مقال" بمجلة حوليات الآداب واللغات"، جامعة المسيلة، ع3، ديسمبر 2013، المسيلة، الجزائر، ص 223 وما بعدها.

Bourouiba®, L'Architecture Militaire de L'Algérie Médiévale, O.P.U , Algérie, 1983 , P 75

2 المدني احمد توفيق، كتاب الجزائر، دار الكتاب، البليدة، الجزائر، ط2، 196، ص184.

3 بورويبة رشيد، دولة بني حماد، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الشروق، بيروت، ط1980، ص202.

للمملكة بهدف رصد تحركات الأعراب الوافدين، الذين تكررت غاراتهم على المنطقة، خاصة على الطريق الرابط بين بجاية والقلعة، زوّدت بأبراج للمراقبة أخذت شكلا مربعا أو مستطيلا عادة ، أنشأت على قمم الجبال ، أورد الإدريسي حصرا لبعضها على غرار: حصن سوق الخميس الذي شيد في أعلى جبل، ذكر أن تقدر العرب لا تقدر عليه لمنعته، وسوق الاثنين، وصفه: بأنه "قصر حصين والعرب محدقة بأرضه وفيه رجال يحرسونه.."[1]، وحصن دار ملول أشرف على مرصد استخدم في رصد تحركات القبائل بني هلال ومن والاها[2]، وحصون أخرى مثل حصن تاكلات[3]، وحصن بكر[4]،وحصن سحاو الذي أقيم على أعظم الجبال علوا، وأصعبها ارتقاء ومسلكا بالمنطقة، مما استعصى على القبائل المتربصة به، ذكر الإدريسي أن هذا الجبل لا تتعداه العرب لمنعته وحصانته[5].

كثافة هذا النوع من التحصينات ، أكدت الطابع الحربي للدولة، واستعداداتها الدائمة لمواجهة الأخطار المستجدة ومنها تجربتهم مع الهلاليين والتي رغم تأثيراتها على المنطقة ، بالسيطرة على محيط عاصمتهم الأولى القلعة، إلا أنها بالمقابل ساهمت في صقل إطارها عسكريا، وجعلتها تتفاعل مع الأحداث بكل إيجابية، إذ مكنتهم قدرتهم في هذا المجال لتفادي التأثيرات المباشرة للهلاليين بدمجهم ضمن أجهزة الدولة المختلفة ومنها الجيش، أو بوضع حواجز تحصينية تحول دون وصولهم إلى حواضر المملكة الأخرى، ومنها إنشاؤهم لعاصمتهم

---

1 الإدريسي، المصدر السابق، ص 64.

2 الإدريسي، نفسه ، ص 86.

3 حصن على مرتفع يطل على الوادي الكبير(الصومام) ببجاية، عنه أنظر:الإدريسي، نفسه، ص64.

4 ينفتح على مراع واسعة، والوادي الكبير(الصومام)، ينبع إلى الجنوب من المدينة، أنظر: الإدريسي، نفسه، ص65.

5 الإدريسي، نفسه ، ص ص92-97.

الثانية الناصرية (بجاية)، التي مكّن اختيار مكانها الجيد، وتحصيناتها القوية من الوقوف في وجههم، مما جعل المؤرخين يصنفونها ضمن أبرز الكيانات الحربية التي قامت في المغرب الأوسط، بحكم تأقلمها الدائم مع المتغيرات التي شهدتها المنطقة خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين.

الخنادق[1]:

من الأساليب التي اعتمدت لزيادة تحصين المدن ، ودعم القدرة الدفاعية للأسوار وأبراج المراقبة ، باعتبارها من الأسس العسكرية التي تستند إليها الدولة عادة " ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب .. كما ترى في القرى التي لا سور لها، لم يأّمنوا صولة ذي بأس ، فألهمهم الله إلى اتخاذ السور والخندق"[2].

تجربة حفر الخنادق حول المدن الموغلة في عمق المناطق الجنوبية، وتخوم الهضاب العليا، يؤكد على القدرة الفنية الحربية للحماديين، بالنظر إلى افتقار المدن الوسطى والشمالية لمثل هذا النوع من التحصين، و يعود ذلك الاختيار حتما إلى طبيعة المنطقة السهلي الذي يسمح لأي عدو بالحركة السريعة فيها بحكم انبساطها، وقدرته بذلك على الوصول إلى مشارف مدنها، وعدم الاستناد إلى الأسوار كوسيلة كافية للتحصن، دفعهم إلى إقامة الخنادق باعتبارها وسيلة

---

1 مفرده خندق، مصطلح فارسي "كندة "، معناه الشيء المحفور، أحد الأساليب الدفاعية في النظم الحربية، يكون محفورا في الأرض بأعماق مختلفة لتأمين حماية المقاتلين من أنظار العدو، ونيرانه، وتأمين ظروف أفضل للرصد والرمي والحركة، استخدم منذ القدم لحماية القلاع، المعسكرات والمدن، استعمله المسلمون لأول مرة على عهد الرسولρ في حربه مع قريش، بإشارة من الصحابي" سلمان الفارسي،فسميت الغزوة بـــ" غزوة الخندق"، للمزيد عنه: أنظر: ابن خلدون، المقدمة، ص، ص486،487، ابن العنابي، المصدر السابق، ص153، صبحي الصالح ،المرجع السابق، ص. 502،503؛ ديري أكرم وآخرون، الموسوعة العسكرية، ج2، ص173، ص182.

2 القزويني،المصدر السابق، ص7.

ناجعة في مثل هذه الأماكن، بحكم تجربة من سبقهـــــم في ذلك، وخاصـــــة من تشـــــابه معهـــم في نفس الواقع الجغرافي وعليه أحيطت المدن الداعمة لكل من القلعة وبجاية بهذا النوع من التحصين على غرار مدينة المسيلة التي أقيم بين سوريها المتوازيينأ المحيطان بها، خندق به ماء جاري[1]، وخندق مماثل على سوق حمزة(البويرة)[2].

ج- **الرباط**ات[3]: أنشأ الحماديون رباطاتهم على المنفذ البحري(المتوسطي)لأغراض متعددة، فإلى جانب العوامل الاقتصادية المرتبطة

---

1 البكري، المصدر السابق، ص59.

2 البكري، نفسه، ص65.

3 -مفردها "رباط" ، "مرابطة" ، وتجمع على "ربط" ، و"رابطة" و"أربطة" و"رباطات"، أي التمركز على الثغور والإقامة على جهاد العدو بالحرب، ورباط الخيل وإعدادها، والعمل على مراقبة العدو والصدام مع مفارزه المتقدمة (قوات الاستطلاع). عرف منذ صدر الإسلام ، ويعني تمركز المقاتل(المرابط) على الحد الفاصل بين دار الإسلام ودار الحرب، إذ منذ الفتوحات الإسلامية كثرت الثغور المنتشرة على خطوط التماس بين الدولة الإسلامية والدول المجاورة. أما في المغرب الإسلامي فظهرت الربط كمؤسسة دينية وحربية في صورتها المعروفة منذ أواخر القرن الثاني الهجري، لتأخذ معنى الثغر، ورغم التشابه بين المصطلحين، إلا أن الثغر استخدم عادة في المشرق والرباط بالمغرب. من الرباطات التي اشتهرت ببلاد المغرب "رباط المنستير" الذي بناه الوالي العباسي "هرثمة بن أعين" سنة 180هـ/796م، بأمر من الخليفة هارون الرشيد كحصن لمراقبة تحرك الأسطول البيزنطي، و"رباط سوسة" الأغلبي سنة 206هـ. والرباط عبارة عن ثكنة تتركب من صحن وعشرات الغرف الانفرادية حوله، ومن طبقات تعلو جوانبه، تنتهي بجامع وصومعة تستخدم للآذان، وبرج مراقبة للسواحل تجنبا لغدر المسيحيين، مع استخدام وسائل متعددة للاتصال بين الرباطات المختلفة مثل المرايا العاكسة، والحمام الزاجل نهارا، والنار ليلا لتناقل الأخبار فيما بينها، للمزيد انظر: ابن عذاري، البيان،ج1،ص ص88،89، السراج محمد بن محمد، الحلل السندسية في الأخبار التونسية ،ج 2، تحقيق ونشر محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1970، ص297؛ التجاني أبو محمد عبد الله بن محمد، رحلة التجاني، تحقيق وليام مرسي وتقديم حسن حسني عبد الوهاب، بدون مكان الطبعة، ط1377هـ، ص ص30،31، حسن حسني، ورقات، القسم 3 ص ص403،405؛ بلغيث محمد الأمين، الربط بالمغرب الإسلامي - ودورها في عصري المرابطين والموحدين- رسالة ماجستير(مخطوطة)، معهدالتاريخ، جامعة الجزائر، 1987،ص ص34، 35، ص

بدعم مكانة بجاية عاصمتهم الثانية في هذا المجال، وتوسع حركتها التجارية لتشمل مختلف أصقاع العالم، كان العامل الديني المرتبط بالجهاد البحري ، وما قامت به من نشاط فعال على الثغور والموانئ البحرية التابعة لها، دافعا قويا لإنجاز هذه المنشآت العسكرية، خاصة وأن حدود الدولة ارتبطت بمياه إقليمية جعلتها في مواجهة النورمان الذين ظهور على مسرح الأحداث في المنطقة بشكل لافت مع بداية القرن السادس الهجري(12م)، بل باشروا حملاتهم على الموانئ المغرب الإسلامي فامتلكوا الكثير منها، وهو ما جعل أغلب المؤرخين يصنفونه ضمن إطار الوقوف في وجه الحملات الصليبية التي بدأت في المشرق، واستمرت في المغرب في العهدين الزيري والحمادي[1]، مما جعلها تدخل في مواجهات عنيفة مع الإمارات المسيحية بجنوب أوربا، مثل إمارة صقلية وسردينيا وبيزا وجنوة، إذ كثيرا ما أغار البحارة الحماديون على هذه المواقع، بالمقابل باشر قراصنة هذه الإمارات الرد بالمثل، ومنها دخول "يحي بن العزيز" أخر ملوك بني حماد في مواجهة مباشرة مع أسطول "روجر II" ملك صقلية المتحالف مع حاكم المهدية الزيري، أمام الأخطار المحدقة التي عبرت عن طابع الصراع المحتدم بين الجانبين للهيمنة على الحوض الغربي للمتوسط[2].

فالرباطات البحرية أنشئت أساسا لتجمع بين وظائف عدة دينية وعسكرية واقتصادية، ومنها فاستندت عاصمتي الدولة خاصة الناصرية منها بحكم موقعها

ص109،108، 113؛ الخولي أمين – الجندية والسلم- واقع ومثال-، دار المعرفة، القاهرة، ط 1960، ص ص60،61؛ خورشيد ابراهيم زكي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مج10، مادة "رباط " لمرسيه جورج، **ترجمة الشناوي**، بدون طبعة ولا تاريخ، ص19 .

1 الصباغ ليلى، مداخلة بملتقى الفكر الإسلامي الثامن، بجاية 25 مارس /05 أفريل 1974، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مج II، ص 616.

2 بورويبة، الدولة الحمادية، ص 120.

البحري إلى ثغور على الواجهة البحرية، أبرزها رباط " شرشال " الذي ذكره الرحالة البكري في مغرض حديثه عن ما وقف عليه بالمدينة ، فقال: " وفيها رباطات يجتمع إليها في كل عام خلق كثير[1]، وقد كانت في وقته من ضمن أعمال بجاية[2]، وكذا رباط مغيلة القريب من مدينة تنس، الذي اتخذ موقع مواجها لإمارة سردينيا بجنوب أوربا، ورباط ملالة[3]، خارج مدينة "بجاية"، إذ بقي يقوم بدوره الجهادي على الضفة البحرية حتى عهد"عبد المؤمن بن علي "الموحدي واستيـــــلائه على هذه الأخيرة في القـــــرن الســـــادس الهجـــــري[4].

بواسطة هذه التحصينات المتقدمة، تمكن الحماديون من الأخذ بزمام الأمور في المنطقة خلال النصف الثاني من القرن الخامس والأول من القرن السادس الهجريين، مكنها من القيام بدورها التاريخي في الحفاظ على حدود الدولة الإسلامية، رغم تجزأ دوله، وتعدد نظم الخلافة بها، وأهلها للمحافظة على روح الجهاد العريق ضد الحملات الصليبية الأولى في المنطقة، ليتمكن سكان المغرب الأوسط مستقبلا من دعم إخوانهم الأندلسيين الفارين من بطش محاكم التفتيش خلال القرنيين الخامس والسادس عشر الميلاديين.

د- المـــــــــــدن:

أنجز الحماديون مدنهم بناء على اختيار جغرافي وعسكري مسبق ، استنادا إلى الطبيعة المعقدة للمنطقة وإلى الطابع الحربي الذي اتصفت به الدولة ، يحدد

---

1 البكري،المصدر السابق، ص62.

2 لقزويني، آثار البلاد، ص 208، خورشيد ابراهيم وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مادة "شرشال" لـــ G.yver ترجمة أحمد الشنتاوي،مج 13، ص 189.

3القزويني،نفســـه، ص 208؛ بلغـــيث، المرجع السابق، ص 194.

4 النويري، نهاية الأرب، ج24، ص ص303،302.

القزويني الأسس المستند إليها عند إنشاء المدن " .. ثم إن الملوك لما أرادوا بناء المدن .. اختاروا أفضل ناحية في البـــــلاد وأفــضل مكـــــان من النـــــاحية، وأعلى منزل في المكـــــان في السواحـــــــل والجبال"[1].

فكان إنجاز مدنهم الكثيرة بناء على هذه القواعد الطبيعية وذات الأهمية الحربية، بدعم من الأشكال التحصينية المذكورة، ومنها على سبيل المثال، آشير القاعدة العسكرية التي ورثوها عن بني عمومتهم الزيرين، وكذا المدن الثلاث الداعمة لها المدية ومليانة وجزائر بني مزغنة، التي بنيت على التوالي خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري(10م)، وقد استند إليها حماد عند بنائه وإعماره لقلعته، مدينة قلعة بني حماد سنة 398هـ/1007م، بعد أن أقطعه ابن أخيه "باديس بن المنصور" سنة 386هـ/996م أياها، ليقيم بها ملكا تمتع في بدايته بالكثير من مظاهر الاستقلال، إلى أن أسس دولته نهائيا بانقسام ملك صنهاجة إلى قسمين:

- بني حماد بقلعتهم سنة 405هـ/1014م ، وبني زيري بالقيروان والمهدية[2] فكان للمدينة الشأن العظيم في حياة الدولة بحكم الموقع الهام الذي تمتعت به، والذي أشار إليه المراكشي بقوله: " قلعة بني حماد..معقل صنهاجة الأعظم، وحرزهم الأمنع، فيها نشأ ملكهم ومنها انبعث أمرهم"[3]، فكانت بحق قاعدة بديلة لآشير بالمغرب الأوسط، تقف في وجه خصومهم التقليديين زناتة ، وخصومهم الجدد بني هلال بحكم الميزات الإستراتيجية التي تفوقت بها، على المركز الأول للدولة، لتكون بدورها قاعدة دفاعية واقتصادية هامة بالمنطقة، فبناؤها على سفح جبل كيانة (تاقربوست) الشاهق، أهلها للعب دور هام في

1 القزويني، المصدر السابق، ص 8.

2 المراكشي، ، ص174،

3 المراكشي، نفسه، ص174،

حياة الدولة، بأفول فعالية دور مدينة آشير التي تحولت إلى ولاية من ولاياته. بعد أن عمق تحصينها بالأسوار وأبراج المراقبة، مكنته من تحقيق الانتصارات المتتالية على بطون زناتة، وتحديه نشاطهم، ومن الوقوف في وجه الزيريين، الذين أرادوا استرجاع سيادتهم على المنطقة منذ التمرد الذي قام به "حماد" على إرادة ابن أخيه "باديس"، الذي طالبه بالتنازل عن بعض أعمال قسنطينة لصالح ابن هذا الأخير ، فكانت المواجهة بينهما، لعبت فيها القلعة دورا رئيسيا في دعم تحصن"حماد" بها لمدة ستة أشهر مكنته بعدها من تحقيق الاستقلال نهائيا بالمغرب الأوسط[1].

واقتصاديا خلفت القلعة مدينة آشير، إذ أصبحت منطلقا لحركة تجارية حيوية بحكم موقعها المركزي الذي ربط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، وتنوع أنشطتها الاقتصادية، والرخاء الكبير الذي سمح بتبؤ مكانة خاصة إذ عدت من أكثر بلدان المغرب غنى ،فكانت القوافل تصل إليها من كل الأقطار للتفريغ أو التزود بمختلف المحاصيل والصنائع التي تزخر بها القلعة ،وقد أشار الإدريسي حيوية النشاط التجاري بها، لكثرة مواردها فكانت أثر قطرا، وأغزر خيرا[2]، وأكد البكري ذلك بالقول أنها تمصرت عند خراب القيروان، وهي في وقت زيارته لها مقصد التجار الذين وفدوا إليها من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب.[3].

فالقوة الاقتصادية للدولة استدعت تحصين العاصمة الأولى وغيرها من المدن المجاورة لها بصورة جيدة، اعتبارا لحالة اللاستقرار الدائم التي ميزت العلاقات الحمادية مع جيرانها، وسعيا منها للحفاظ على ثبات مداخيل الدولة ضمانا

---

1 بورويبة، مدن مندثرة، ص ص84،85.

2 الإدريسي، المصـــدر السابـــق، ص 86 .

3 البكـــري، المصـــدر السابـــق،ص 49 .

لديمومة وجودها، والاستعداد الحربي الكافي لمواجهة الأخطار المحتملة التي تهددها .

إلا أن الحملة الهلالية على المغرب الأوسط، والصعوبات التي لازمت محاولات احتواء الوافدين الجدد ضمن إطار الدولة حال دون الاحتفاظ بتلك القوة والمكانة، نظرا للتأثيرات التي خلفوها في أحواز القلعة، مما عجل بنقل مقر العاصمة من المنطقة الداخلية، إلى الساحلية، فكان إنشاء مدينة الناصرية[1]، التي عرفت ببجاية، لتكون العاصمة الحمادية الثانية، والتي خططت بدورها على طراز عمراني حربي، يكفل للدولة حماية اكبر، وعمرا أطول.

فكانت فكرة "ابن البعبع" عامل "تميم بن المعز" الزيري الذي أوحى لـــ " الناصر ابن علناس" بأهمية الموقع الهام الذي أنشئت على أساسه، إذ لا يضمن صدّ الهلاليين فحسب، بل يتعداه إلى إشراف الدولة على واجهة البحرية هامة تمكنه من امتلاك المهدية وبلاد إفريقية بكاملها حيث خاطب "الناصر" بقوله :".. وأنا أشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها، وقد عبرّت بجاية فرأيت فيها مرافق من صناعة وميناء وجميع ما يصلح لبناء مدينة ، فاجعلها لك مدينة ، يكون دار ملكك، وتقربك من جميع بلاد إفريقية " [2]، واختطت المدينة فعلا في حدود سنة 457هـــ/1065م على رأس جبل قوراية الشاهق، الذي يجمع الجغرافيون والمؤرخون على أهميته الإستراتيجية المتميزة، ومنهم الحموي الذي ذكر أنها بنيت في جبل شاهق، مستند في قبلته إلى جبال كانت قاعدة ملك بني

1 الناصرية أو المنصورية، نسبة إلى مؤسسها، وأعظم الملوك الحماديين " الناصر بن علناس"، عنها أنظر: العبدري، الرحلة المغربية، ص23؛ طويل، المرجع السابق، ص 297 وما بعدها،

2 النويري/ المصدر السابق، ج24، ص234.

حـــماد[1]، إلى جانب امتداد يابسها داخل البحر مما سمح لها بتبوء مكانة عسكرية رائدة في المغرب الأوسط كله.

ونفس الأهمية يؤكدها صاحب كتاب الروض المعطار بقوله أن المدينة أنجزت على ضفة البحر، وهي على جرف حجر، ولها من جهة الشمال جبل سام صعب المرتقى يسمى أميسول[2]. مما جعل الحماديين يستغلونها بشكل مكثف في ترصداتهم، بحجم ما أنشئ من حصون وأبراج ورباطات حول المدينة، أو بوسائل اتصال مختلفة للربط بين العاصمة وولاياتها، أهلتهم لعرقلة الحملة الهلالية جنوبا، وضم ممتلكات الزيريين شرقا، وصدّ غارات زناتة غربا، ومواجهة هجمات النورمان عبر البحر شمالا.

كما أسست المدينة لواقع اقتصادي جديد ، بفتح مسار إضافي للعلاقات التجارية الدولية، فإضافة إلى الطريق التقليدي (طريق السودان شرق – غرب) فتح طريق البحر، بين المغرب الإسلامي جنوبا وأوربا شمالا، وباقي مناطق العالم الأخرى، فعدت بذلك قطبا رئيسيا عالميا.

فذاعت بذلك شهرة الدولة وعاصمتها بكثافة السفن التي تحط بمينائها من مختلف مناطق العالم، إذ أجمع الجغرافيون على أهمية دورها بما عاينوه من حركية تجارية واسعة، فهذا صاحب كتاب الاستبصار هاله ما لاحظه من حيوية النشاط بها، واصفا أنها أشرفت على مرسى عظيم تحط فيه سفن الروم من الشام، وسفن المسلمين من الإسكندرية، وسائر بلاد مصر، ومن بلاد اليمن والهند والصين وغيرها[3]، ويؤيده الإدريسي بقوله: أن "مدينة بجاية في وقتنا هذا

---

1 الحموي، معجم البلدان، ص495.

2 الحميري، المصـــدر السابـــق، ص ص،80.

3 مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق ونشر سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، ط1980، ص ص20،21.

مدينة الغرب الأوسط، وعين بلاد بني حماد، والسفن إليها مقلعة، وبها القوافل منحطة، والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجـــار الصحراء وتجار المشرق .. "[1].

هذه المكانة الاقتصادية المكتسبة، كانت في نظري من الدوافع الحقيقية لتكثيف التحصينات العسكرية في المنطقة دعما للمكاسب المحققة ، وبناء لمصداقية ومكانة الدولة، وضمانا لثقة المتعاملين معها ، حتى أصبح ملكهم يضاهي ملك معاصريهم من الكيانات السياسية الأخرى، بما في ذلك الخليفة الفاطمي بالقاهرة على حد تعبير صاحب الاستبصار" حتى بقي صاحب بجاية في ملك شامخ، وعزّ باذخ يضاهي في ملكه صاحب مصر" [2].

إضافة إلى ما لعبته مدن أخرى اكتسبها الحماديون من غيرهم، أو بنوها بأنفسهم، من أدوار في هذا المجال ومنها ثغور أقصى المملكة غربا، بدءا بمشارف وهران على ساحل البحر شمالا، وصولا إلى تلمسان وتيهرت جنوبا التي تمثل الحد الفاصل بين مواقع صنهاجة وزناتة وقسنطينة و بونة شرقا اللتين مثلتا الحد الفاصل بينهم وبين الزيريين شرقا.

فالتحصينات العسكرية بمختلف أشكالها، حددت المعالم الرئيسية لحدود الدولة التي امتدت من مشارف وهران مرورا بتنس غربا، وصولا إلى بونة والأوراس شرقا، ومن جزائر بني مزغنة وبجاية شمالا إلى وركلا (ورقلة) وبسكرة جنوبا، في ملك دام زمنيا مدة 142 سنة أي الفترة الممتدة ما بين 405هـ/1016م، إلى 547 هـ/1152م. عرف المغرب الأوسط بعواصمه وأمصاره المختلفة خلالها أوج ازدهار له، إلى جانب الدور الاقتصادي

1 الإدريسي، المصدر السابق، ص63.

2 مجهول، نفسه، ص130.

والحضاري الذي قامت به القلعة وبجاية والذي يمثل صورة زاهية في تاريخ الدولة الحمادية.

3-أثر المنشآت العسكرية في الحفاظ على الدولة وضمان استمراريتها:

مثلت عاصمتا الدولة الحمادية القلعة وبجاية، قاعدتين عسكريتين هامتين، ومدينتين بارزتين ذاع صيتهما سياسيا، واقتصاديا وثقافيا، إذ وقفتا حصنين منعين دعمت الأولى خيار حماد مؤسس الدولة عند ما همّ بتنفيذ مشروعه الاستقلالي عن الدولة الأم، الدولة الزيرية، ومكنت الثانية الناصر بن علناس من الحفاظ على ملك أجداده، الذي تهددته أخطار عدة، خاصة ضغط القبائل الهلالية لأحوازها، حيث وقفت شامخة دون النيل منها، حتى وإن تمكن هؤلاء الوافدين أنفسهم من اجتياح مدينة القيروان ذات المكانة التاريخية العريقة، في حين استعصت القلعة على كل من حاول النيل منها، ودخولها، فبقيت تؤدي وظيفتها العسكرية التي أسست من أجلها، بل بقيت القبائل التي نزلت بضواحيها، مترصدة مستغلة للفيفي والضيعات المحيطة بها دون تمكنها من دخول المدينة نظرا لحصانتها، وصعوبة النيل منها.

وزيادة في الحرص من الجانب الحمادي، انتقلوا للاستقرار على ضفاف الساحل في خطوة كانت تهدف للمحافظة على استمرارية وجود دولتهم فكانت الناصرية بجاية وغيرها من الحواضر نوذجهم الأمثل في ذلك.

كما تفطن الحماديون إلى تبعات ما خلفوه من ورائهم، فأقاموا تحصينات متنوع في شكل ابراج وقلاع، لرصد تحركات القبال الهلالية وغيرها، على الطريق الرابط بين العاصمتين، وبالمقابل الوعي بالتحديات التي واجهتم على الضفة الأخرى من البحر، فقد عبأ النورمان كل قدراتهم خاصة العسكرية منها لوضع قدم سبق بسواحل المغربين الأوسط والأدنى.

وختاما هذه الإنجازات، عدتَ إن على مستوى العمران العسكري، أو نشاط الميداني للجيش الحمادي بشقه البري أو البحري، عوامل هامة ساهمت في طبع الدولة بميزة الدولة القوية التي قامت على أساس حربي، جعل الأحداث المتعاقبة في تسلسلها تصقل تجربتها، وتزيد من تراكم خبراتها مما زاد في قوتها وصلابتها، فدفعها للتفاعل الدائم مع مختلف الأحداث، رغم صعوبة التحديات التي واجهتها طيلة مدة سيادتها والتي قدرت بما يربو عن المائة والخمسين سنة(405-547هـ/1014-1152م)، مما جعل غالبية المؤرخين يصنفونها ضمن أبرز الدول التي قامت في المغرب الأوسط خصوصا، والمغرب الإسلامي عموما.

قائمة المصادر والمراجع:

1- المصادر:

ابن الأثير أبو الحسن عبد الواحد الشيباني الجزري، الكامل في التاريخ، ج9، دار الكتاب العربي، بيروت ط2، 1967.

الإدريسي أبو عبد الله محمد، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس- مأخوذ من " كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق"- مطبعة بريل، ليدن، ط 1968.

الباجي أبو عبد الله الشيخ، الخلاصة النقية في أمراء افريقية، طبع مطبعة بيكار وشركائه، تونس، ط2، 1905.

البكري أبو عبد الله المرسي، المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ، وهو جزء من كتاب: " المسالك والممالك"، تحقيق البارون دوسلان، مكتبة المثنى، بغداد، ط1957.

التجاني أبو محمد عبد الله بن محمد، رحلة التجاني، تحقيق وليام مرسي وتقديم حسن حسني عبد الوهاب بدون مكان الطبعة، ط1377هـ.

الحموي شهاب الدين ياقوت، كتاب معجم البلدان، أسدي، طهران، 1965.

ابن حوقل أبو القاسم حمد النصيبي، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت بدون تاريخ.

ابن الخطيب لسان الدين، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط – القسم (3) من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق وتعليق العبادي أحمد مختار، والكتاني محمد إبراهيم، دار الكتاب، الدار البيضاء،المغرب، ط 1964.

ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، مكتبة المدرسة، در الكتاب اللبناني للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ط1979.

ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر،ج6، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ط 1983.

ابن خلكان شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج1، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط 1971.

ابن أبي دينارعبد لله محمد القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية و تونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ط1387،3 هـ.

السراج محمد بن محمد، الحلل السندسية في الأخبار التونسية ،ج 2، تحقيق ونشر محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1970.

العبدري محمد البلنسي، الرحلة المغربية ، تحقيق أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، قسنطينة، بدون تاريخ.

ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ليفي بروفنسال وكولان (ج.س) ج1، ط3، 1983.

ابن العنابي محمد بن محمود، السعي المحمود في نظام الجنود، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1983.

القزويني زكريا بن محمد ، أثار البلاد و أخبار العباد، دار صادر للطباعة و النشر، بيروت، ط1960.

القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج5، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط 1913.

مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق ونشر سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، ط1980.

المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق وتقديم وتعليق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، مصر الجيدة، القاهرة، مصر، ط1994.

النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 24، تحقيق محمد جابر عبد العالي الحيني ومراجعة إبراهيم مصطفى المكتبة العربية، يصدرها المجلس الأعلى بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب(مركز التحقيق التراث)، القاهرة، مصر، ط1984.

2- المراجع:

ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1971.

بدر أحمد، تاريخ المغرب والأندلس، المطبعة الجديدة، دمشق ،سوريا، ط 1980.

بن عمير محمد، دور زناتة في الحركة المذهبية في المغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1984،ص280.

بنعبدالله عبد العزيز، الجيش المغربي عبر التاريخ، منشورات قسم الدراسات الدبلوماسية، الرباط، ط 1986.

بوتشيش إبراهيم القادري، تاريخ الغرب الإسلامي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1994.

بورويبة رشيد ، مدن مندثرة – تاهرت سدراته ، آشير ، قلعة بني حماد- وزارة الإعلام والثقافة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1981.

بورويبة رشيد، دولة بني حماد، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الشروق، بيروت، ط1980.

الجنحاني الحبيب، المغرب الإسلامي،الحياة الاقتصادية والاجتماعية(3-4 هـ / 9-10م)، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1978.

الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 6، ط1983.

حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، القسم 3، جمع وإشراف محمد لعروسي المطوي، كتبة المنار، تونس، ط2، 1972.

الخولي أمين – الجندية والسلم- واقع ومثال-، دار المعرفة، القاهرة، ط 1960.
داود بن يوسف سليمان، حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، مطبعة أبو داود، الجزائر، ط 1983.
سالم السيد عبد العزيز، المغرب الكبير– العصر الإسلامي– دراسة تاريخية وأثرية وعمرانية، ج 2، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1981.
صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت، ط1965.
الطويل الطاهر، المدينة الإسلامية وتطورها في المغرب الأوسط من النصف الثاني للقرن الأول إلى القرن الهجري الخامس، الناشر : المتصدر للترقية الثقافية والإعلامية، الجزائر، ط2011.
العدوي إبراهيم أحمد، بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط1970.
العربي إسماعيل ، دولة بني حماد ملوك القلع وبجاية، ش.و.ن.ت، الجزائر بدون تاريخ.
العربي اسماعيل، دولة بني حماد ملوك لقلعة و بجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، ط1980.
لقبال موسى وبورويبة رشيد وآخرون، الجزائر في التاريخ – العهد الإسلامي- من الفتح إلى بداية العهد العثماني، ج3،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 1984.
المدني أحمد توفيق، كتاب الجزائر، دار الكتاب، البليدة، الجزائر، ط2، 196.
المطوي محمد لعروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،ط1982،2.
هندي إحسان، الحياة العسكرية عند العرب، مطبعة الجمهورية، دمشق، سوريا، ط1964.
يونس عبد الحميد، الهلالية في التاريخ والأدب والشعر، دار المعرفة،القاهرة، ط 2، 1968.

3– الرسائل الجامعية والموسوعات والمقالات:

بلغيث محمد الأمين، الربط بالمغرب الإسلامي – ودورها في عصري المرابطين والموحدين- رسالة ماجستير(مخطوطة)، معهدالتاريخ، جامعة الجزائر، 1987.
خورشيد ابراهيم زكي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مج10، مادة "رباط " لمرسيه جورج، ترجمة الشناوي، بدون طبعة ولا تاريخ.
ديري أكرم وآخرون، الموسوعة العسكرية ،ج3، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1981.
سامي سلطان سعد، دراسة عن رسالة البابا غريغوري السابع إلى العاهل الحمادي التاصري بن علناس"، مقال "بمجلة الدراسات التاريخية"، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ع1، 1986.
الصباغ ليلى، مداخلة بملتقى الفكر الإسلامي الثامن، بجاية 25 مارس /05 أفريل 1974، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ط1974.

علاوة عمارة، " قلعة بني حماد- نشأة وأفول حاضرة إسلامية-"، مقال" بمجلة حوليات الآداب واللغات"، جامعة المسيلة، ع3، ديسمبر 2013، المسيلة، الجزائر.

4- المراجع باللغة الأجنبية:

Boruouiba Rachid, l'Art Religieux Musulman en Algérie, S.N.E.D, Alger,1973.

Bourouiba Rachid, L'Architecture Militaire de L'Algérie Médiévale, O.P.U, Alger,1983.

Cornevin Robert ,Histoire de l'Afrique,des Origins au XVI Siecle,t 1, paris, 1967.

Golvin Lucien- Le Magrib Central à l'Epoque des Zirides, Recherches d'Archéologie et d'Histoire Arts et Métiers Graphique, paris,1957.

Mas-latrie (M.L),Traites de Paix et de Commerce et Documents Divers Concernant les Relations des Chrétiens avec les Arabes, puplished in paris, 1866.